مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 335-368
اهتمام الجزائريين بصحيح البخاري

اهتمام الجزائريين بصحيح البخاري من خلال رحلة ابن حمادوش (ق.12 هـ/ 18م)

طاهر بخدة
جامعة معسكر، tahar.bekhadda@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 27/ 07/ 2019؛ تاريخ القبول: 09/ 11/ 2019

Interest of Algerians to Sahih El Boukhari according to Ibn Hamadouche travel (12H/18JC).

Abstract :

The Algerians gave a great importance to their religious patrimony such as books of Hadith, because they are the second legislative source after the holy Quran, especially Sahih El Boukhari which gained the interest of the Algerians and impressed them. It is one of the most truthful books of Hadith with Sahih Muslim.

Imam El Boukhari gathered a great number of the prophet's true Hadith in this book. The fad that made it the most perfect one for most of the scientists. It was thanks to the scientific travels that this book arrived to the Islamic occidental states into two recitations by El Boukhari. The

المؤلف المراسل: طاهر بخدة
tahar.bekhadda@univ-mascara.dz

most famous one is the Firabri recitation which was thought to Ifriquia (Tunisia) by the scientist Abu El Hassan El Gabsi during the 5th century of hegira, and to the Andalus by Elbaji in the same century.

The Algerians took care of Sahih El Boukhari in terms of memorization, explanation and learning. It was explained first by Eddaoudi in the 4th century, then other scientist where interested in it. This book gained more importance in the Ziyanid period so that sultan made copies of it, and promoted its learning in big mosques and elementary schools in Tlemcen, Bejaia, etc … According to Ibn Hamadouche, In the othoman period where the Islamic studies were dilated, Sahih El Boukhari was learnt in Algeria in the mosques, Zaouaya and schools especially in month of Ramadhan. Ibn Hamadouche shows the importance of Sahih El Boukhari for the Algerians in the 18th century through his two travels to Egypt and Morocco where he studied El Hadith and broadcast some of its copies to Algeria. He attended the sitting where Hadith was read and memorized.

Finally, in this research, we can say that studies of Hadith in the Algeria came in second place after Quran.

The problematic to pose in this research is: what is the stature of El Hadith in the algerian cultural system? How did it enter and what's the role of the algerian scientists?

Keywords: Boukhari; Sahih; Algerians; mosques; travels.

الملخص:

يُعدُّ التراث الإسلامي من المسائل التي أولاها الجزائريون اهتماما وهو دليل على تمسُّكهم بدينهم، ومنها كتب الحديث باعتبارها من أهم مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، وبخاصة صحيح البخاري الذي له مكانة مميَّزَة في نفوس الجزائريين لأنه من أوثق الكتب، والذي جمع فيه صاحبه عددا كبيرا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيحة، حيث اتَّفق جل العلماء على أنه من أصح الكتب. أمَّا عن كيفية دخوله إلى بلاد المغرب عموما، فكان عن طريق الرحلات العلمية والمجاورة بمكة، وقد وصل المنطقة بروايتين عن البخاري، إلا أنَّ المشهورة منها هي رواية الفربري التي أدخلها إلى إفريقية (تونس) الإمام أبو الحسن القابسي، بينما دخلت الأندلس عن طريق أبي الوليد الباجي.

اعتنى الجزائريون عبر مراحل التاريخ بصحيح البخاري دراسة وحفظا، فشرحه أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع الهجري ثم تولاه غيره من العلماء بالشرح والتوضيح، وازداد الاهتمام به في العهد الزياني حيث قام بعض السلاطين بنسخه، وكانوا يفتتحون به مجالسهم العلمية. أمَّا في العهد العثماني الذي اشتهرت فيه العلوم

الدينية، التي كان فيها للحديث أهمية بالغة ولاسيما صحيح البخاري الذي نال مكانة خاصة حيث تناوله العلماء والطلبة بالحفظ والشرح سواء في المساجد الكبرى كمدينة الجزائر وقسنطينة، أو حتى في الزوايا والكتاتيب، كما كان بعض البايات العثمانيين يتبركون به فيحملونه معهم في أسفارهم وفي معاركهم ضد الصليبيين.

يصوِّر لنا ابن حمادوش مكانة كتاب صحيح البخاري لدى سكان الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي من خلال رحلتيه إلى كل من مصر والمغرب الأقصى اللتين درس فيهما الحديث، وأدخل بعض نسخه إلى الجزائر، وحضوره جلسات قراءة وختم الكتاب في شهر رمضان.

الكلمات المفتاحية: البخاري؛ الصحيح ؛ الجزائريون؛ المساجد؛ الرحلات.

مقدمة:

تعد العلوم النقلية كالقراءات والتفسير والفقه والحديث من العلوم التي حظيت باهتمام الجزائريين منذ قرون الإسلام الأولى، والتي استمرت حتى العهد العثماني، وإذا كان القرآن الكريم والفقه في مقدمة تلك الاهتمامات لعلاقته المباشرة بالعبادات والمعاملات اليومية، فإنَّ كتب الحديث أولاها المسلمون عناية دراسة وحفظا باعتباره مصدرا هاما

للتشريع الإسلامي، ورغم اطِّلاع أهل بلاد المغرب على كتب الحديث المعروفة إلا أنَّ اهتمامهم بصحيح البخاري كان أشد، وهو ما سنحاول كشفه من خلال هذه الأوراق البحثية.

أما الإشكالية التي أثرتها في هذا البحث فهي: ما مكانة الحديث في المنظومة الثقافية للجزائريين ولاسيما كتاب صحيح البخاري سواء بالنسبة للمثقفين والعامة أو بالنسبة للسلطة العثمانية ؟ كيف دخل هذا الكتاب إلى بلاد المغرب وما مدى مساهمة علماء الجزائر في دراسته ونشره ؟ وقد عالجت الموضوع من خلال العناصر الآتية: أولا عرَّفت بالإمام البخاري، ثم أسباب وطريقة تأليف الكتاب

أما العنصر الثاني فكان حول ظروف وكيفية دخول المؤَلَّف إلى الغرب الإسلامي عموما ثم الجزائر، فيما كان العنصر الثالث حول اهتمام الجزائريين بهذا الكتاب خلال مختلف مراحل التاريخ، أمَّا العنصر الأخير فكان عن دور ابن حمادوش في إبراز مكانة هذا الكتاب ومساهمته في إدخاله إلى الجزائر والمشاركة في تدارسه بمسجد مدينة الجزائر، ثم ختمت الموضوع بأهمية الرحلات كتراث تاريخي يجب جمعه ودراسته، ما يمكننا من اكتشاف ومعرفة العديد من الجوانب الحضارية للجزائر عبر التاريخ فكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

التعريف بالإمام البخاري (194- 256هـ):

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي، وُلد ببخارى من بلاد ما وراء النهر في شهر شوال سنة 194هـ/ 810م، طلب الحديث وعمره حوالي عشر سنوات، فقرأ ببلده بخارى على محمد بن سلام وغيره، ثم ببلخ على مكي بن إبراهيم، وسمع بمرو من عبدان بن عثمان وغيره، وبنياسبور من يحي بن يحي وبالري من إبراهيم بن موسى، ثم دخل بغداد سنة 210هـ/ 825م فسمع بها من محمد بن عيسى بن الطباع وغيره، كما قرأ بمكة والمدينة ومصر والشام فكتب عن ألف وثمانين رجلا ليس فيهم إلا صاحب حديث، توفي البخاري بخَرْتَنك من قرى سمرقند ليلة عيد الفطر سنة 256هـ- 870م. روى عنه خلق كثير منهم التِّرمذي وابن أبي الدنيا والنسفي وابن خزيمة وأبو داود ومحمد بن يوسف الفِرَبري راوي الصحيح وأمم كثيرة، قيل سمع كتاب الصحيح سبعون أو تسعون ألف رجل (الذهبي محمد، د.ت: ج1، 555).

اسم الكتاب وتأليفه:

رُوي في سبب تأليفه عن إبراهيم بن معقِل النسفي قال: "قال أبو عبد الله البخاري: كنا عند إسحاق بن راهويه فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابا مختصرا في الصحيح لسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوقع ذلك في قلبي وأخذتُ في جمع هذا الكتاب".

صنَّف الإمام البخاري كتابه بمكة والمدينة والبصرة وبخارى في مدة ست عشرة سنة وخرَّجه من ستمائة ألف حديث وسماه الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. أما عدد أحاديثه فهي خمسة وسبعون ومائتان وسبعة آلاف حديث (7275) وقد نظَّمها اليعفري في البيتين الآتيين:

جَميعُ أحَاديثِ الصَّحيحِ الَّذِي رَوَى البُخَاريُّ خَمسَةٌ وسَبعُونَ في العَدِّ
وسَـبعَةُ آلافٍ تُضَـافُ وَمَـا بَقـيَ إلى مائَتَيْنِ عَدَّ ذاكَ أولُو الجِدِّ

اعتمد الإمام البخاري في جامعه على ما صحَّ من الأحاديث النبوية فيروى عنه أنه قال:" صنفتُ كتاب الجامع في المسجد الحرام وما أدخلتُ فيه حديثا إلا بعد ما استخرت الله تعالى وصليتُ ركعتين وتيقنتُ صحته" (البخاري محمد، 2007: 10) كما اعتمد في تدوين جل أحاديثه تقريبا على شيوخه مباشرة، وقلَّما استخدم كتبا لمؤلفين سبقوه بجيلين أو ثلاثة (سزكين محمد، 1991: مج2، 150) وذلك حرصا منه على

الصحة في النقل حتى أنه اشترط في جمعه للأحاديث الصحيحة شروطا سميت شروط البخاري ولذلك يقال: صحيح على شرط البخاري.

اتفق جمهور العلماء على أنَّ أصح الكتب المصنَّفة صحيحا البخاري ومسلم، ورجَّح بعضهم صحيح البخاري على صحيح مسلم، ولذلك يأخذ كتابه المكانة الأولى بين كتب السُنَّة، قال فيه الحجوي:" وجامعه حجة الله في الأنام، اتفقت الأمَّة أنه أصح كتب الدين الإسلامي من بعد المصحف الكريم، لا يقدَّم عليه أي كتاب غيره للثقة العامة الحاصلة لصاحبه" (الحجوي محمد، 1918: ج3، 81)، وقد اعتمد فيه على رواة الحديث من أهل المدينة أي الحجازيين لأنهم أوثق أهل السُنَّة كمالك عن نافع عن ابن عمر، وابن شهاب عن ابن المسيَّب عن أبي هريرة، ولذلك اعتبر الإمام مالك عمل أهل المدينة أصلا من أصول مذهبه، وهو مُقدَّم عنده على خبر الواحد، فهو أقوى منه إذ عملهم بمنزلة روايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (اليحصبي عياض، 1998: مج1، 22) فإن لم يوجد عمل أهل المدينة أُخِذ بخبر الواحد.

دخول صحيح البخاري إلى بلاد المغرب:

وصل صحيح البخاري إلى الغرب الإسلامي عموما عن طريق الرحلات العلمية إلى المشرق والمجاورة بمكة حيث كان العلماء يقيمون

سنوات في حواضر العلم كبغداد والبصرة والكوفة وغيرها للسماع والأخذ عن علمائها ثم يعودون لبلدانهم ناشرين ما حصلوا عليه من علم، وقد وصل بروايتين، رواية النَّسفي (295هـ- 907م) وهي أقل شهرة، أمَّا الثانية فهي من طريق الفِرَبري (أنظر التعليق رقم 1) وهي من أشهر الروايات المعروفة في العالم الإسلامي (اليحصبي عياض، 1978: ج1، 9)، وقد دخلت بلاد المغرب في وقت مبكِّر بست روايات يتصل سندها بالفربري مباشرة (السبتي ابن رشيد، دت: 18) وهي: رواية أبو علي سعيد بن عثمان البغدادي نزيل مصر (ت353هـ/ 964م) وأبي زيد محمد بن أحمد المروزي (ت371هـ/ 981م) وأبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت373هـ/ 983م) وأبي إسحاق إبراهيم بن أحمد البلخي (ت376هـ/ 986م) وأبي محمد عبد الله السرخسي (ت381هـ/ 991) وأبي الهيثم محمد المروزي (ت389هـ/ 999م).

سمع الفربري صحيح البخاري من مؤلِّفه مرَّتين، الأولى عندما كان بفربر سنة 248هـ- 862م، والثانية في بخارى سنة 252هـ- 866م (الإشبيلي ابن خير، 1998: 83) وعن ثلاثة من الرواة السابقين روى الحافظ أبو ذر الهروي قراءة على السرخسي بهراة سنة 373هـ- 983م، وعلى المستملي ببلخ سنة 374هـ- 984م، وعلى الكُشميهني سنة

389هـ- 999م، كما سمع من الدارقطني والحاكم، وروايته من أتقن الروايات وأشهرها (السبتي ابن رشيد، دت: 41)، لأنها مأخوذة عن الأصل (محمد إسحاق محمد آل إبراهيم، 2009: 144) وقد انتشرت في الغرب الإسلامي عبر:

أ- إفريقية:

يُعتبر أبو الحسن القابسي أول من أدخل رواية البخاري إفريقية وذلك بعد رحلته إلى المشرق (352- 357هـ) التي سمع فيها الحديث عن اثنين ممن روى عن الفربري، وهما: أبو زيد محمد بن أحمد المروزي وأبو أحمد عبد الله الجرجاني (الإشبيلي ابن خير، 1998: 84)، وبعد عودته إلى القيروان أسمع بها الحديث، فأخذ عنه الجم الغفير، منهم أبو عمران الفاسي (ت430هـ- 1038م)، وقد ضبط بين يديه أحاديث البخاري أبو محمد الأصيلي (اليحصبي عياض، 1998: مج2، 241) بعد أن فقد القابسي بصره (أنظر التعليق رقم 2).

ب- الأندلس:

انتشر صحيح البخاري بدرجة أكبر في الأندلس لكثرة رحلة علمائها إلى المشرق واهتمامهم بالفقه والحديث، وممن كان لهم الفضل في نشره أبو الوليد الباجي (ت474هـ- 1081م) الذي أخذه في رحلته إلى

المشرق سنة 426هـ- 1034م عن أبي ذر الهروي الذي لازمه أربعة أعوام أثناء إقامته بمكة (الباجي أبو الوليد، 1991: ج1، 244). كما كتب الحديث في بغداد التي أقام فيها ثلاثة أعوام، وعنه روى حافظا المشرق والمغرب الخطيب البغدادي وابن عبد البر وهما أسن منه، ومن مؤلفاته في الحديث:"التعديل والتجريح لمن خرَّج عنه البخاري في الصحيح".

ولذلك فإنَّ أكثر نسخ البخاري الصحيحة المتداولة ببلاد المغرب والأندلس هي من رواية أبي الوليد الباجي، وعنه أخذها علماء وطلبة العدوتين، ومنهم أبو علي الصدفي (أنظر التعليق رقم 3)، الذي اهتمَّ كشيخه بالحديث فكتب صحيح البخاري في سِفر وصحيح مسلم في سِفر وقام بإقرائهما. وعنه روى ابن سعادة المرسي (ت522هـ-1128م) حيث لازمه وصاهره (كانت ابنته عند أبي علي الصدفي) فكتب النسخة الشهيرة من صحيح البخاري رواية أبي ذر الهروي بخطه، قرأها على صهره مرارا (جمعة فتحي عبد الحليم، 2013: ج1، 370) وهي المسماة في المغرب بالشيخة.

وعنه رواها ابن أخيه أبو عبد الله محمد ابن سعادة (ت566هـ-1170م) وقد كانت هذه النسخة من أحباس القرويين وهي بخط أبي

عمران الفاسي وعليها خط أبي علي الصدفي دليلا على قراءتها عليه، قال المقَّري في نفح الطيب:" وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه وسمعهما على صهره أبي علي وكانت أصلين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما " (المقري أحمد، 2011: مج2، 430)، قال الحجوي:" فنسخة الشيخة ليست من قبيل الوِجادة (أنظر التعليق رقم 4)، بل رواية متصلة إلى الصدفي من طريق أبي عمران وولد أخيه معًا إلى البخاري (الحجوي محمد، 1918، ج4، 60)، وعليه يكون سند رواية صحيح البخاري حتى أواسط القرن 6هـ/ 12م كما يلي: ابن سعادة المرسي عن أبي علي الصدفي عن أبي الوليد الباجي عن أبي ذر الهروي عن الفربري عن البخاري (عياض اليحصبي، 1978: ج1، 9).

الاهتمام بصحيح البخاري في المغرب الأوسط (الجزائر):

لم يكن أهل المغرب الأوسط أقل اهتماما بالحديث عن غيرهم من أهل المشرق والمغرب، فقد كانت لهم عناية ومشاركات في الحديث سواء بحفظه أو من حيث دراسته بالشرح ومعرفة علله ورجاله، وحسبنا في ذلك أنَّ أبا جعفر أحمد بن نصر الداودي كان أول من شرح صحيح البخاري من خلال كتابه"النصيحة في شرح البخاري" والذي اعتمد عليه من أتى بعده من الشُرَّاح، وقد وصف البكري الحياة العلمية في

مدينة تلمسان خلال القرن الخامس الهجري قائلا:" ولم تزل تلمسان دارًا للعلماء والمحدِّثين" (البكري، 2013: 164). وهو ما يُبين أنَّ علم الحديث كان معروفا في هذه الفترة.

انتقل كثير من علماء المغرب الأوسط إلى الأندلس للأخذ عن محدِّثيها ممن اشتهروا في القرن الخامس الهجري وبخاصة الباجي وابن سكرة ثم عادوا إلى بلدانهم أين اشتغلوا برواية الحديث، وممن اشتهروا بذلك نذكر:

- أبو بكر يحي بن عبد الله بن محمد الجمحي الوهراني (ت430هـ- 1038م): كان قوي الحفظ، غلب عليه علم الحديث (ابن بشكوال، 2010: مج2، 312)، حدَّث عن أبي محمد عبد الله الأصيلي، وعنه حدَّث ابن خزرج وغيره.

- أبو الحسن يحي بن عيسى بن علي بن ابن الصيقل (ت514هـ- 1120م): كان شديد العناية بطريق الرواية، روى عن علي بن سكرة.

- أبو يوسف يعقوب بن حمود التلمساني (ت 523هـ- 1129م): لقي بمرسية أبا علي الصدفي وأخذ عنه سنة 511هـ-1117م وعاد إلى تلمسان أين درَّس بجامعها سنة 523هـ- 1129م.

- أبو محمد عبد الله بن خليفة بن أبي عرجون (ت534هـ-1139م): كان يميل إلى الحديث ويحفظ كثيرا منه.

- أبو الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي جنون التلمساني المتوفى سنة 557هـ- 1162م، دخل الأندلس وروى عن أبي علي الصدفي وأبي عمران بن أبي تليد.

صحيح البخاري في العهد الزياني (من القرن 7 إلى القرن 9هـ):

تَواصلَ الاهتمام بالحديث وبخاصة صحيح البخاري في هذه الفترة لاسيما في مدينة تلمسان، فقد كان يغمراسن بن زيان يستدعي إلى عاصمته الفقهاء والمحدِّثين ويبني لهم المدارس ويحضر مجالسهم، وقد ذكر التنسي أنَّ السلطان المذكور كان يصطحب في حركاته كتب الصِّحاح الستة محمولة في خيمة مزيَّنة مربَّعة الشكل (التنسي، 1985: 124) كما نسخ السلطان أبي زيان محمد بن أبي حمو (796- 801هـ/ 1394-1399م) نسخة بيده من صحيح البخاري حبسها بخزانته، وهو ما يبيِّن أهمية ومكانة هذا الكتاب.

كما اشتهر أيضا بعلم الحديث في تلمسان أبو عبد الله محمد ابن مرزوق الحفيد (ت842هـ- 1439م) له شرح على البخاري يسمى: "المتجر الربيح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح والوجه الصبيح

والخلق السميح في شرح الجامع الصحيح" انتصب لتدريس صحيحي البخاري ومسلم (إسماعيل باشا البغدادي، 1951: مج2، 191)، فكانت إليه الرحلة، فأخذ عنه أبو الحسن علي القلصادي (القلصادي أبو الحسن، 1978: 97) وأبو القاسم والبرزلي (ت841هـ- 1438م) والحافظ التنسي (ت899هـ- 1494م) وغيرهم كثير.

إضافة إلى تلمسان اشتهرت مدينة بجاية بتدريس الحديث وخاصة بعد استقرار جاليات كبيرة من علماء الأندلس المتخصصين في القراءات والحديث الذين انتصبوا للتدريس والرواية معتمدين على أمهات الكتب المشهورة كالموطأ والصحيحين، ولا شك أنهم جلبوا معهم كثيرا منها ولاسيما رواية ابن سعادة التي ستُعتَمد في بلاد المغرب، وممن اشتهر بالإقراء والرواية ببجاية أبو عبد الله محمد بن صالح الشاطبي (الغبريني، 2007: 40)، قرأ عليه العبدري بعض الموطأ أثناء إقامته ببجاية في رحلته إلى الحج سنة 688هـ/ 1289م(العبدري محمد، 2005: 84).

في العهد العثماني:

سادت الدراسات الدينية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه، ورغم أنَّ الإنتاج في هذه العلوم كان يفتقر إلى الجِدَّة حيث ساد التقليد والحفظ والاختصار، إلا أنَّ كثرة التآليف تبرهن سيطرة تلك العلوم على

الحياة الثقافية ومدى الاهتمام بها، وقد نال صحيح البخاري مكانة خاصة من بين كتب الحديث الستة، والذي بلغ حد القداسة والاحترام من قِبل الأهالي، فكتبوا عليه الشروح والحواشي وكانوا يتدارسونه في الجوامع الكبيرة (سعد الله أبو القاسم، 1998:ج1، 299) ويتنافسون في حفظه ويتبركون به، وكان يتقدم لقراءته من له صوت جهوري ويُرش ماء الورد في نهاية ختمه.

لـم يقتصر الاهتمام بصحيح البخاري على الطلبة والعلماء، بل تعداه إلى بعض البايات العثمانيين الذين كانوا يتبركون به فيحملونه معهم أثناء المعارك، ومن ذلك أنَّ محمد بن عثمان الكبير (أنظر التعليق رقم 5) حمل معه في حركته لفتح وهران الثاني مطلع سنة 1206هـ-1791م صحيح البخاري في ربعة رائعة بين صندوقين ملآنين بالكتب على بغلة فارهة، وغطى الربعة بسجف حرير مغشى بلباس الكعبة المشرَّفة موشى بأحسن توشية، وأمر العلماء أن يسيروا وراءه، ولـمَّا نزل بالقرب من ضريح سيدي الشحمي من أحواز وهران نصَّب خباءً وبسط فرش الزرابي ووضع فيه صحيح البخاري والكتب التي معه، وجلس العلماء يقرؤونه (أحمد بن سحنون، 2013: 472)، وعند فتح المدينة وخروج الاسبان كان أول من دخلها العلماء يَقدمُهم صحيح البخاري.

يبدو أنَّ قراءة صحيح البخاري كانت واسعة الانتشار في الجزائر فيذكر الآغا المزاري أنَّ احميدة العبد كبير سويد خرج من السرسو لغزو قبائل هبرة بتحريض من الولي الصالح محمد قدار (ت1065هـ-1654م) دفين مينا، هذه القبائل كانت تتعرَّض للمهاجرين الأندلسيين المطرودين من الأندلس، ينكلون بهم فيشقون عن بطونهم لاستخراج الناض أي الذهب حسب زعمهم، حيث وافق ذلك ختم صحيح البخاري في يوم الجمعة (المزاري، 2009:ج1، 211)، ويمكن أن نستدل بهذه الرواية على أنه كان يُدرَّس ليس في المدن فقط، بل في القرى والأرياف، ومما يؤكد شهرة كتاب البخاري كثرة استشهاد أبي راس الناصر بأحاديثه عند تطرقه أو تفسيره لبعض الأحداث التاريخية أو الدينية أو الاجتماعية (أنظر التعليق رقم 6).

احتوت الكثير من المدارس والمساجد والزوايا الجزائرية على نسخ من صحيح البخاري، الذي كان يُدرَّس من قبل أشهر العلماء حيث يُقرأ بين يديهم ثم يقوم المحدِّث بالشرح والتوضيح، ولم تكن تُسنَد قراءته إلا لمن كان له صوت جهوري حسن وذلك احتراما وتقديسا له حتى كاد ينافس المصحف في كثرة الاستعمال (سعد الله ، 1998: ج2، 26)، وقد احتوى المسجد الأعظم بمدينة الجزائر على عدة نسخ لصحيح

البخاري من رواية ابن سعادة الاشبيلي معظمها بخط عبد القادر الفاسي(أنظر التعليق رقم 7) إضافة إلى نسخة من عشرين جزءًا كان يملكها محمد الخروبي(سعد الله، 1998: ج1، 498).

اشتهر كثير من العلماء الجزائريين في العهد العثماني بتخصصهم في الحديث ولاسيما صحيح البخاري فقاموا بتدريسه في المساجد والزوايا ليس في الجزائر فقط، بل في دول المشرق والمغرب، نذكر من هؤلاء:

* عمر بن محمد الكماد القسنطيني (ت960هـ- 1553م): عُرف بالوزان، يقال أنه كان من المتصوفة، يعكف على قراءة كتب الوعظ، فناداه ذات مرة رجل وهو يقرأ الكتب بالجامع الأعظم بقسنطينة: يا عمر عليك بالأحاديث النبوية تُنوِّرك ظاهرا وباطنا، فترك الشيخ ذلك واشتغل بالأحاديث، فكان يحفظ البخاري بأسانيده (الفكون عبد الكريم، 1987: 36).

* ابن الوقاد محمد بن أحمد التلمساني (ت1001هـ- 1593م): قرأ العلم بتلمسان فأخذ عن الإمام التنسي وختم عليه صحيح البخاري ست عشرة مرة، استقر أخيرا بمدينة ترودانت في المغرب الأقصى، وكان أول من أقرا بها الجامع الصحيح للبخاري قراءة ضبط وإتقان (محمد الحفناوي، 2012: ج2، 348).

* المقري أحمد بن محمد بن يحي التلمساني (ت1041هـ-1631م): كان آية في علم الكلام والتفسير والحديث، قرأ على عمه أبي عثمان سعيد صحيح البخاري سبع مرات وروى عنه الكتب الستة بسنده عن أبي عبد الله التنسي عن أبي عبد الله بن مرزوق، وهو ما يبيِّن مكانة هذا الكتاب لدى الجزائريين وتضلُّعهم فيه، ولذلك لـمَّا تصدَّر المقري لتدريس صحيح البخاري في الجامع الأزهر بهر الحاضرين، كما أملى الحديث بالجامع الأموي بدمشق (المحبي، دت: ج1، 303).

* محمد بن علي أقوجيل (ت1080هـ- 1669م): من حفاظ الحديث، له منظومة "عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع" وهي منظومة في أسماء مخرجي أحاديث صحيح للبخاري وعدد الأحاديث التي لكل منهم (إسماعيل باشا البغدادي، 1955: ج2، 292).

* عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي (ت1020هـ- 1611م): من علماء مجاجة نواحي شلف التي اختصت في التفسير والحديث، تفقَّه بمدرستها على محمد بن علي، ثم رحل إلى تلمسان أين أخذ عن علمائها ومنها انتقل إلى مدينة فاس، كان عالما بالحديث، قام بشرح مختصر كتاب " جمع النهاية في بدء الخير والغاية" لعبد الله ابن أبي جمرة الأندلسي

(ت699هـ- 1299م) في الحديث سمَّاه فتح الباري في ضبط ألفاظ الأحاديث التي اختصرها العارف بالله من صحيح البخاري (أبو القاسم الحفناوي، 2012: ج2، 216).

* عمر بن محمد المنقلاتي (ت1100هـ- 1687م): من علماء الجزائر، قرأ صحيح البخاري على أبي الحسن علي بن عبد الواحد السجلماسي، وعنه أخذ جماعة من أعيان الجزائر (توفيق المدني، 2009: 90).

ومن مظاهر الاهتمام بالحديث شيوع الأثبات وهي حفظ الحديث وإسناده وقراءته وإقراؤه، كما شاعت كتابة الفهارس أو البرامج التي يسجل فيها المحدِّث مروياته في الحديث بالسند والكتب التي قرأها والشيوخ الذين أخذ عنهم (ف.سزكين، 1986: ج1، 138) وهي إحدى طرق تلقي ونشر علم الحديث.

رحلة ابن حمادوش إلى المشرق وقراءته الحديث:

عبد الرزاق بن محمد بن أحمد ابن حمادوش الجزائري، من أعلام الجزائر في القرن الثاني عشر هجري/الثامن عشر ميلادي، مالكي المذهب، أشعري العقيدة، شريف النسب، وُلِد سنة1107هـ- 1695م في أسرة متوسطة تمتهن الدباغة، درس في مدينة الجزائر على ابن ميمون،

كان واسع الثقافة، درس العلوم العقلية كالفلسفة والفلك والصيدلة والطب الذي ألَّف فيه كتاب "الجوهر المكنون من بحر القانون" كما لم ينقطع عن تيار عصره فاهتمَّ بالفقه والنحو والصرف والتاريخ، قام برحلة في شبابه إلى الحجاز ومصر أخذ فيها الحديث بمكة والجامع الأزهر على عدة شيوخ كمحمد الزرقاني، وإبراهيم بن عيسى بن موسى البلقطري، وعبد الله البصري المكي وغيرهم، وقد كانت هذه الرحلة بمثابة فترة تكوين أخذ فيها الحديث وعلومه، توفي بعد أن عاش حوالي تسعين سنة في تاريخ ومكان مجهولين، وأغلب الظن أنه توفي بالمشرق بين سنوات 1197-1200هـ/ 1783- 1786م (أنظر التعليق رقم 8).

رحلته إلى المغرب الأقصى وأخذه الحديث:

تعدُّ رحلته التي بدأها فاتح عام 1156هـ- 1743م إلى المغرب الأقصى (ابن حمادوش، 1983: 29) أهم رحلاته أين التقى هناك بعض الأعلام والشيوخ الذين أخذ عنهم الحديث، وهو ما يهمنا في هذا البحث، ورغم أنَّ رحلته هذه لم تأخذ إلا ثلث الكتاب (من الصفحة 29 إلى الصفحة 113) والباقي عبارة عن يوميات ومذكرات، إلا أنها

صوَّرت النشاط العلمي السائد آنذاك سواء في المغرب الأقصى أو الجزائر وبخاصة الحديث.

أخذ ابن حمادوش في رحلته إلى المغرب الأقصى الحديث ولاسيما صحيح البخاري لقاءً واجتماعا عن سبعة عشر شيخا، نذكر منهم:

* أبو عبد الله محمد بن عبد السلام البناني الفاسي (ت1163هـ-1740م): وهو أول من أخذ عنه الحديث، قرأ عليه كتاب الدعوات وأجازه (ابن حمادوش، 1983: 62).

* الشيخ أحمد بن محمد الورززي المتوفى سنة 1179هـ- 1765م: قرأ عليه أولا صحيح البخاري، ثم صحيح مسلم، وموطأ الإمام مالك (الحضيكي، 2006: ج1، 113) كما أجازه أن يروي عنه كتب الحديث الستة (أنظر التعليق رقم 9).

* أبو محمد عبد القادر الفاسي: قرأ عليه صحيح البخاري ختمتين، وبعض صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي.

* أحمد بن العربي بن الحاج: قرأ عليه صحيح البخاري مرتين وصحيح مسلم مرة وموطأ الإمام مالك مرتين كانت إحداها بقراءة ابن حمادوش.

* محمد بن أحمد القسنطيني الكماد: قرأعليه صحيح البخاري.

أبو عبد الله العربي بن أحمد بردلة: قرأ عليه نصف صحيح البخاري بلفظه أي بقراءة ابن حمادوش وكثيرا من الموطأ.

* الحسن بن مسعود اليوسي: قرأ عليه صحيح البخاري كاملا مرة واحدة، وناوله صحيح مسلم والموطأ.

* علي بن محمد بركة التطواني: قرأ عليه بعض صحيحي البخاري ومسلم، والموطأ (ابن حمادوش، 1983: 48).

اغتنم ابن حمادوش تواجده بالمغرب لاقتناء كتب الحديث شراءً ونسخا والتي ستكون كمصادر ومراجع بالنسبة له في علم الحديث، منها حاشية عبد الرحمن الفاسي على البخاري.

طريقة إقراء وسرد صحيح البخاري بالجامع الكبير بمدينة الجزائر:

بعد عودة ابن حمادوش من المغرب الأقصى (ابن حمادوش، 1983: 113) قام بإقراء وسرد صحيح البخاري، وكانت الطريقة أن يقوم أحد المملين أو المسمِّعين بقراءة النص بصوت عال لإسماع الحاضرين، ويظهر أنَّ بعض هؤلاء المملين لم يكونوا يحسنون الإملاء مما استدعى استبدالهم، وممن كان يملي صحيح البخاري في مجلس درس ابن

حمادوش، سيدي محمد ابن سيدي عبد الهادي وكان من الفصحاء، و أحمد العمالي ولم يكن ممن يحسن الإملاء وهو ما جعل المفتي الحاج الزروق يتدخل للإملاء مكانه (ابن حمادوش، 1983: 122) ويظهر أيضا أنَّ دراسة البخاري كانت رواية أي قراءة وحفظ المتون وتُجرى في الحصة الصباحية، أما الدراية أي فهم وفقه متن الحديث عن طريق شرح الشيخ فتكون بعد صلاة الظهر. تتم القراءة وفق نسق معيَّن حيث تبتدئ بكتاب بدأ الوحي وكتاب الإيمان وكتاب العلم في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني تُقرأ كتب كل من الوضوء والغسل والحيض والتيمم، وفي اليوم الثالث يُبتدأ من كتاب الصلاة وهكذا إلى قوله سبحانه وتعالى: « **وَنَضَعُ الـمَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** » (الأنبياء: 47) أي إلى كتاب التوحيد وهو آخر الكتاب (ابن حمادوش، 1983: 235، 263).

تدوم قراءة صحيح البخاري مدة ثلاثة أشهر: رجب وشعبان ورمضان من كل سنة (أنظر التعليق رقم10)، وتكون ختمته في فجر اليوم الموالي لليلة القدر أي الثامن والعشرين من رمضان، أين يحيي الحاضرون الليل بالصلاة والذكر والدعاء والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم على ضوء الشموع الملونة ورش ماء الورد، وقد

ذكر ابن حمادوش في كتابه ثلاث ختمات لصحيح البخاري، كانت الأولى بعد عودته من المغرب الأقصى سنة 1157هـ-1744م، والثانية سنة 1158هـ- 1745م، أمَّا الثالثة فكانت سنة 1159هـ-1746م.

يُعدُّ صحيح البخاري من أهم كتب الحديث التي كان الناس يتنافسون في حفظها حيث ظلت مادة دراسية أساسية في المساجد والزوايا، ولذلك كانت له آداب خاصة في مجالس قراءته وختمه تتعلق بالضبط والإتقان(جمعة فتحي عبد الحليم، 2013: ج1، 72) وقد أُلِّفت في ذلك تآليف يكون قد اطَّلع عليها علماء الجزائر وطبقوها عند ختمه كما أشرنا أعلاه، ومنها كتاب" تحفة القاري عند ختم البخاري" تأليف أبي حامد محمد المقدسي (ت888هـ-1483م) وكتاب "عمدة القارئ والسامع في ختم الصحيح الجامع" لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت902هـ- 1497م) (سزكين فؤاد، 1986: ج1، 250).

كتابات علماء الجزائر حول صحيح البخاري: تمثَّلت اهتمامات الجزائريين في ميدان التأليف على بعض الأمور التقليدية مثل الشروح والحواشي والرسائل الصغيرة والأراجيز، وسنشير إلى تلك المؤلفات خلال القرون 10، 11، 12هـ.

– " عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع "، وهي منظومة لمحمد بن علي آقوجيل.

– "فتح الباري في ضبط ألفاظ الأحاديث التي اختصرها العارف بالله ابن أبي جمرة من صحيح البخاري" لعبد الرحمن المجاجي، وهو شرح لكتاب جمع النهاية ببعض الخير والغاية.

– " فتح الباري في شرح غريب البخاري " لأبي العباس أحمد بن ساسي البوني (ت1139هـ- 1726م) (محمد مخلوف، 2003: ج1، 475).

– أبو محمد الحاج الداوودي التلمساني (ت1271هـ- 1854م): كان متفننا في علوم شتى من فقه وحديث ونحو، له تآليف عديدة، منها شرح على البخاري لم يكمله (محمد الكتاني، 2004: ج1، 295).

خاتمة:

إنَّ اهتمام الجزائريين بكتب السنة نابعة من حرصهم على دينهم بحفظ وشرح كتب الحديث ولاسيما صحيح البخاري، وهو ما يتجلى في رحلة ابن حمادوش التي نستشف من خلالها بعض الاستنتاجات والملاحظات: – دور الرحلة وأهميتها في الحركة العلمية من خلال

التدارس والمناقشة والنقل، وهو ما قام به ابن حمادوش حيث التقى المحدِّثين وأخذ عنهم.

- رغم أنَّ المذهب المالكي هو السائد في الجزائر إلا أنَّ صحيح البخاري كان أكثر شهرة وقداسة من الموطأ، وقد يعود ذلك ثقة الناس فيه لاسيما وأنَّ الذين رووه ونقلوه كانوا إما جزائريون أو من بلاد المغرب عموما.

- أعطتنا هذه الرحلة صورة عن الحالة الفكرية والنظام التعليمي في الجزائر خلال فترة المؤلف.

- بفضل الدراسة والشروح والحفظ لكتب الحديث التي عني بها المسلمون وصلتنا السنَّة بسند متواتر موثوق من خلال مدوني الحديث عن التابعين عن الصحابة.

- يُمكن القول أنَّ الرحلات التي عُرِف بها المسلمون هي تراث فكري وحضاري يجب الاهتمام به، سواء بجمع مخطوطاتها وتحقيقها ودراستها للاستفادة منها تاريخيا وفكريا.

التعليقات:

1- الفِربري: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح، سمع من علي بن خشرم، كان ثقة ورعا، توفي سنة 320هـ- 932م وفِربر بليدة بين جيحون وبخارى، بينها وبين جيحون نحو الفرسخ. (ياقوت الحموي، 2008: مج3، 422).

2- كان القابسي عالما بعلل الحديث وبرجاله، له كتاب الممهد في ستين جزءًا، جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه، توفي سنة 403هـ- 1012م. (الدباغ، 1968: ج3، 134).

3- الصدفي: أبو علي الحسين بن محمد بن فيرة بن حيون، يُعرف بابن سكرة السرقسطي المرسي العالم الجليل المحدِّث، كان عالما بالحديث وعلله وطرقه وأسماء رجاله، حافظا لمصنفاته ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها، رحل إلى المشرق وسمع بالبصرة وبغداد ودمشق ورجع إلى الأندلس سنة 490هـ- 1097م فحدَّث بمرسية ورحل الناس إليه من البلدان، استشهد في وقعة كتندة سنة 514هـ- 1120م. (المقري، 2011: مج2، 305).

4- الوِجادة هي استخدام أحد الكتب أو الأحاديث، ويحصل على ذلك من يحوز نسخة آخر الرواة، ويُقدَّم لها بألفاظ: وجدتُ وأُخبرتُ وحُدِّثت. ولا يلزم فيها الحفظ، بينما يلزم في السماع والقراءة. (سزكين فؤاد، 1986: ج1، 124).

5- محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي، يُعرف بمحمد الكبير ومحمد الأكحل، تولى بايلك الغرب من سنة 1192- 1213هـ/ 1779- 1797م، اهتمَّ بالجيش وبتعمير مدينة وهران وبناء المساجد، كان محبا للعلماء، توفي في ظروف غامضة بعد رجوعه من مدينة الجزائر وأداء الدنوش للداي وذلك ببلاد قبيلة السائح بن خضرة كبير أولاد قصير نواحي مازونة. (الزياني، 2013: 260).

6- عن الأحداث والأحاديث التي استشهد بها أبو راس يُنظر، (أبو راس محمد، 2008: ج1، 54، 55، 56، 58، 97، 137، 149، 178/ ج2، 118، 154، 158، 178).

7- اشتهر بقراءة وتدريس صحيح البخاري أبو محمد عبد القادر الفاسي وابنه عبد الرحمن (ابن عيشون، 1997: 112، 134).

8- عن ترجمته ينظر، (ابن حمادوش، 1983: 29، 138، 160، 166، 202، 226/ أبو القاسم سعد الله، 1998: ج2، 425/ أبو القاسم سعد الله، 2007: ج1، 221).

9- نص الإجازة: " إنَّ الشريف الفاضل العلامة سيدنا ومولانا عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري دارا ومنشأ، رغب أن يسمع مني ما سهل الله سبحانه من الحديث مما سمعته عن أشياخي رحمنا الله وأياهم، فأسعفته في رغبته فأسمعته بعض موطأ مالك بن أنس رضي الله عنه من رواية يحي بن يحي الليثي وأجزته سائره، وأسمعته بعض صحيح مسلم بن الحجاج القشيري وأجزته سائره، ورغَّبني أيضا أن أجيزه في كل ما صحت لي روايته من مسموع ومجاز فأسعفته، فأجزته أن يروي عني الكتب الستة" عام 1156م بمدينة تطاون (ابن حمادوش، 1983: 37).

10- ختمة سنة 1158هـ1745م (ابن حمادوش، 1983: 216، 218، 235)، ختمة سنة 1159هـ-1746م (ابن حمادوش، 1983: 257، 258، 263)

قائمة المراجع:

- الباجي أبو الوليد، (1991). **التعديل والتجريح لمن خرَّج عنه البخاري في الجامع الصحيح**، دط، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

- البخاري محمد، (2007). **صحيح البخاري**، ط5. بيروت: دار الكتب العلمية.

- ابن بشكوال خلف، (2010). **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، تونس: دار الغرب الإسلامي.

- البغدادي إسماعيل باشا، (1955). **هدية العارفين**، دط. استامبول: وكالة المعارف الجليلة.

- البكري عبيد الله، (2013). **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، بيروت: دار الكتب العلمية.

- التنسي محمد، (1985). **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، دط. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

- جمعة فتحي عبد الحليم، (2013). **روايات الجامع الصحيح ونسخه دراسة نظرية وتطبيقية**، ط1، قطر: دار الفلاح.

- الحجوي محمد (1918). **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، دط. تونس: مطبعة النهضة.

- الحضيكي محمد، (2006). **طبقات الحضيكي**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

- الحفناوي محمد، (2012). **تعريف الخلف برجال السلف**، بوسعادة: دار كردادة.

- ابن حمادوش عبد الرزاق، (1983). **رحلة ابن حمادوش المسماة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال "**، دط. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

- الحموي ياقوت، (2008). **معجم البلدان**، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- ابن خير الإشبيلي، (1998). **فهرسة ابن خير**، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

- الدباغ عبد الرحمن، (1968). **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، دط. تونس: المكتبة العتيقة.

- الذهبي محمد، (دت). **تذكرة الحفاظ**، دط. بيروت: دار الكتب العلمية.

- أبو راس محمد، (2008). **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، دط. وهران: مركز البحث في الأنتوبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

- الزياني محمد، (2013). **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، ط1، الجزائر: عالم المعرفة.

- السبتي ابن رشيد، (دت). **إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح**، دط، تونس: الدار التونسية.

- ابن سحنون أحمد، (2013). **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، ط1، الجزائر: عالم المعرفة.

- سزكين محمد فؤاد، (1991). **تاريخ التراث العربي**، دط، الرياض: جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

العبدري محمد، (2005). **رحلة العبدري**، ط2، دمشق: دار سعد الدين.

- سعد الله أبو القاسم، (1998). **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- سعد الله أبو القاسم، (2007). **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط3، الجزائر: دار البصائر.

- ابن عيشون محمد، (1997). **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

- الغبريني أحمد، (2007). **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، ط1، الجزائر: دار البصائر.

- الفكون عبد الكريم، (1984). **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- القلصادي علي، (1978). **رحلة القلصادي**، دط، تونس: الشركة التونسية للتوزيع.

- الكتاني محمد، (2004). **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة.

- المحبي محمد، (1867). **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، دط. القاهرة: المطبعة الوهبية.

- محمد أسحاق محمد آل إبراهيم، (2009). **الأصول الستة رواياتها ونسخها**، ط1، الرياض: مكتبة الملك فهد.

- **مخلوف محمد، (2003). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، بيروت: دار الكتب العلمية.

- المدني أحمد، (2009). **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791**، دط. الجزائر: دار البصائر.

- المزاري بن عودة، (2009). **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، دط. الجزائر: دار البصائر.

- المقري أحمد، (2011). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، طبعة خاصة. الجزائر: عالم المعرفة.

- نويهض عادل، (1980). **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، ط2. بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية.

- اليحصبي عياض، (1988). **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، بيروت: دار الكتب العلمية.

- اليحصبي عياض، (1978). **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، دط، تونس: المكتبة العتيقة.